الشعر المصري في مائة عام :

علي الليثي

للاستاذ محمد سيد كيلاني

١٨٢٢ — ١٨٩٦

— ٢ —

في هذه الأبيات يعبر الشاعر عن إحساس داخلي مفعم بالحزن، ويترجم عن شعور صادق فياض بالأسى على ما حاق بالوطن من النكبات الجسام ، ويتحسر على أيام الرخاء والصفاء. ويندب مربع الحظ والأنس الذي أقفر . ولاشك في أننا نرى مظاهر الحسرة والألم بادية بوضوح في قوله :

كان إهليمنا رياض صفاء فيه للوارد بن أعذب منهل

بساطة في التعبير ولكن لا تكلف ولا تصنع .

وقال :

من رآه يقول توفيق مصر أبصر الناس بالأمور وأعدل
قد أمنا الزمان فيه ونحنا آمنين الخطوب لا نتململ

وهنا يذكر فترة الرخاء القصيرة التي أشرقت على البلاد قبيل جنوح الحركة العرابية إلى الطيش الذي أضر بالأمة المصرية ضرراً بليغاً . وعبارة البيت الثاني ضعيفة ، ذلك لأنه قال « أمنا الزمان » ثم قال « ونحنا آمنين الخطوب » والجملتان بمعنى واحد .

وقال :

نتهادى في ظل أسمى مليك من سجاياه كل خير يؤمل
فسرت أعين الحوادث فينا فاطرحنا الوقار والأمر أعضل

البيت الأول تام المعنى . وفي البيت الثاني انتقل إلى الاعتذار فزعم أن الدهر قد حسد المصريين فتركوا ما طبعوا عليه من الهدوء والسكينة . وفي تعبيره بضمير المتكلم في قوله «فاطرحنا» اعتراف صريح منه باشتراكه مع العرابيين في حركتهم . ويظهر في البيتين شعور الحزن والندم . ورد الحركة العرابية إلى حسد الدهر أمر لطيف واعتذار جميل وقال :

ورأى غرنا من الحلم أمراً غره فابتنى الذي لا يحصل
وإذا المرء كان بالوهم يبني فخيال الظنون ما قد تمثل
وبنى قوم سموا لإدراك أمر دون إدراكه الجبال ترول

والفخر هو عرابي الذي أظهر جهلا عظيما وقصر نظر في الشؤون السياسية . ومعنى البيت تافه . والبيت الثاني جيد المعنى أراد أن يجريه مجرى الحكم . أما معنى البيت الثالث فقد ورد في البيت الأول .

وقال :

ما أصروا عليه إلا أضروا بأناس من نابه ومنفل
ذاك يسعى على التقية خوفا وسواه يسعى اتكيا يجمل
لو أصابوا الرشاد عند ابتداه كانت الغاية الجميلة أمثل

ذكر في البيت الأول أن العرابيين بإصرارهم على خطئهم قد ألحقوا الضرر بالناس أجمعين . وفي البيت جناس بين « أصروا » و « أضروا » وطباق بين «نابه» و «منفل» . وفي البيت الثاني يذكر أن الذين انضموا إلى العرابيين كان منهم المتطوعون المؤمنون بما يدعو إليه عرابي وزملاؤه، ومنهم المكرهون الذين أرغموا على تأييد تلك فشايعوها رهبة لا رغبة . ومعنى هذا البيت مأخوذ من الواقع لا من الخيال .

وفي البيت الثالث يقول لو أن العرابيين منذ بداية أمرهم وفقوا إلى الصواب لحدت العاقبة . وهو في هذا يستمد من الواقع ويستوحي القول من الحقيقة المرة التي صدمت الأمة . وفي البيت الأخير نرى روحاً وطنياً سامياً . إذ نظر الشاعر إلى هزيمة العرابيين أمام الانجليز على أنها معرة لحقت بالأمة في حين أن الشامتين بالخديو والراغبين في التزلف إليه اعتبروا هزيمة الجيش المصري من نصر الله الذي جاءهم والفتح ، وراحوا يتغنون بفوز الانجليز وبنجاح أساطيلهم وجيشهم في القضاء على العرابيين .

ثم قال :

آه من رقدة الحلوم ودهر أيقظتنا صروفه إذ تبدل
كانت الناس في ظلال نعيم تجتني من ثمار غصن تهدل
مالنا لم نقم بجد وتدعو من عدا للهدى ونصح من ضل
مالنا كلنا سوى القول منا قد سلكنا سبيل غار مضلل
قد تساوى الغبي والمتغابي وعليم من جاهل صار أجهل

هذه أبيات مؤثرة لأنها صادرة من أعماق الفؤاد فيها تأوه وتوجع وتحسر وتفجع وبكاء على ما أصاب الوطن وأهله . ويلوم الليثي العقلاء من المصريين لأنهم لم يسعوا في إزالة الشقة التي فصلت بين الخديو والعرابيين والتي كانت نتيجتها الوبال والخسران . وهو من غير شك صادق في شعوره، مخلص الإخلاص كله فيما يتحدث به . وفي هذه الأبيات يعترف الشاعر بأن المصريين — سوى أقلية منهم — قد انخرطوا في سلك العرابيين وهو محق فيما يقول :

ثم قال :

قد جبنا وصاحب الجبن جان ... وهو بالطبع في الأنام مرذل
لو رزقنا السداد لانسد باب ... وحقنا دماء قوم تحال
كان يا قوته المذاب معانا ... فسقينا به الثرى إذ تهيل
كم غرسنا جماجماً وجسوما ... وجنينا الأسى بزلة من زل

من يقرأ هذه الأبيات ولا يذكر الدماء الغزيرة التي تلطخت بها أرض الأسكندرية والمحمسة والقصاصين والتل الكبير ؟ أجل لقد بكى الليثي بكاء الوطني على هذه الدماء التي سفكت والأرواح التي أزهقت . وناح على الأبرياء الذين قتلوا وخلفوا الأسى والحزن وقال :

يا ترى من يقوم عنا بعذر ... إذ أطعنا الغواة في كل محفل
حيث حدنا عن المليك وخفنا ... سطوة من عداه والقطر مقبل
حيث لا يرفع البريد شكاة ... وسلوك السلوك صار معطل
حيرة أدهشت أولي اللب حتى ... ما اهتدى للصواب منهم مجمل
ذاك سر القضا وليس عجيباً ... أن يحار الأريب فيه فيذهل

في هذه الأبيات اعترف الليثي بأنه أطاع العرابيين وعذره في ذلك الخوف وعجزه عن إيصال شكواه إلى الخديو لانقطاع الأسلاك البرقية بين مصر والاسكندرية ، وتعطل البريد . وهذا ليس بعذر. فقد كان في استطاعته أن يلحق بالخديو كما لحق غيره . وكان في قدرته أن يتزوى في ضيعته متمارضاً كما فعل بعض الناس . وهو دون ريب متكلف في هذه الأبيات يقول غير الواقع ويحاول أن يخلق لنفسه عذراً يبرر به مسلكه . وأخيراً أحال الأمر على القضاء والقدر ، وهذا اندفاعه في تأييد العرابيين إلى سر خفي من الأسرار الإلهية . وماذا كان قائلا غير هذا ؟ أجل ! لم يجد الرجل أمامه غير ما تقدم .

وقال :

غير أنا لما أفقنا أرقنا ... من شؤون العيون دماً تسلسل
وبسطنا اللسان في ذم قوم ... إن ذكرناهم ننص ونخجل
ومددنا أكف ذل لمولى ... شأنه البر كم علينا تطول
آل مصر بغيره لا تلوذوا ... إذ هو الملجأ الملاذ لمن ذل
يا عظيم الجناب يا خير ملك ... سعده قد أباد من قد تغول

في هذه الأبيات يذكر الليثي أنه لما انتهت الأمور بهزيمة العرابيين أفاق من أحلامه واصطدم بالواقع فبكى ندماً على ما فرط منه . وأخذ يلعن زعماء الحركة العرابية لما جنوه على أنفسهم وعلى مواطنيهم بجهلهم وقصر نظرهم ورعونتهم وطيشهم والليثي في قوله «وبسطنا اللسان ... الخ» يصور المصريين وقد تنكروا لتلك الحركة وشرعوا يتقربون من الخديو بالقدح في زعمائها. وفي البيت التالي تصوير لبعض من اتهموا بموالاة العرابيين وقد هرعوا إلى ساحة الخديو طالبين العفو والصفح . ثم انتقل بعد ذلك إلى مدح الخديو فخاطب المصريين وحثهم على أن يلوذوا بجانب الخديو إذ هو خير ملاذ وأطيب ملجأ . وما أظن الليثي قصد مخاطبة المصريين الذين تسابقوا من تلقاء أنفسهم إلى ساحة الخديو رغبة أو رهبة. إنما أراد أن يظفر بالعفو فنهج نهجاً فيه إغراء للخديو بتحقيق أمنيته التي يصبو إليها . وذلك بتقريره أن الخديو هو الملجأ والملاذ لمن ذل . فهذا التقرير فيه حث وإغراء . وفي البيت الأخير يخاطب الخديو ويمدحه ويقول إن حظه الحسن قد أعان في القضاء على من شق عصا الطاعة من العرابيين. ومن الطبيعي أن يذكر الشاعر شيئاً كهذا في ذلك المقام .

وقال :

من بغى والوغى أثار فحكم ... في طلاه الحسام فالسيف فيصل
واجعل العدل عادل الرمح فيهم ... نافذاً قدر ما يعدل وينهل
واسقهم كالذي سقيناه إنا ... قد شربنا من بعد بعدك حنظل

كان الخديو توفيق يرتاح لمثل هذه الأبيات . ولذلك أكثر الشعراء من تحريضه على قتل زعماء الحركة العرابية، وإهدار دمائهم . ولو ترك له الأمر لما تردد في قتلهم . وقد جاء الليثي إلى الخديو من الناحية

التي يرتاح إليها، وضرب على الوتر الذي يسره . وذلك لا حقداً منه على هؤلاء الزعماء بل استرضاء للخديو واستدرار لعطفه وهو لم ير في ذلك بأساً فمصير الزعماء كان قد تقرر . فتحريضه لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يغير من هذا المصير . وعلاوة على ما تقدم فإن الليثي في هذه القصيدة لم يحزن على الزعماء ولم يبك على ما أصابهم إنما حزن وبكى على ما أصاب المصريين من الكوارث والخطوب التي دهمتهم من جراء قيام الحركة العرابية . أما قوله :

.. واسقهم كالذي تيماء ... الخ ، فتظاهر فيه الكذب . وأي حنظل هذا الذي سقيه ؟ وكان في استطاعته أن يتنزل في ضيفته . وما قال هذا إلا ليصور للخديو أن يد العرابيين امتدت إليه بالأذى وأنه قاسى منهم الأهوال وشرب الحنظل ، فيرثي الخديو له ويعطف عليه ويقرب منه إكراماً له وتقديراً على ما أصابه من شر العرابيين .

وقال :

واغتفر ذلة لمن جر رغماً ... لبلاه ولا منيع يؤمل
كم مليك عفا وأنت المفدى ... فوقهم همة فلا تتمجل
وامنح الناس من سجاياك عطفاً ... واجعل العفو موضع الشكر واعمل
فجدير بمجد ذات الخديوى ... كل فضل وليس للعذر محل

ذكر في البيت الأول أنه أرغم على الانضواء تحت لواء الحركة العرابية . ثم أخذ بعد ذلك يلتمس العفو بعبارات في منتهى البساطة لا غلو فيها ولا مبالغة ، ولا إسفاف في التذلل والخضوع . ثم قال :

غابق واستبق من رعاياك قوماً ... أملوا العفو من حياك المسبل
إن تدقق تدق أعناق ألف ... بل مئين من الألوف تقتل
والرعايا تضيع بين عدو ... وولى له الفخار المؤثل

هكذا ختم الليثي قصيدته هذه ، مستمداً ختامه من الواقع . فالذين اشتركوا في الحركة العرابية كثيرون أو كما قال :

ما لنا كلنا سوى القول منا ... قد سلكنا سبيل غاو مضلل

فلو أن الخديو تشدد لقضى على حياة مئات الألوف . وقد أجاد في الجمع بين بقاء الخديو واستبقائه لقوم من رعاياه أملوا عفوه . ووفق في استخدام كلمة «رعاياه» في هذا المقام . وكأنه أراد أن يقول إن الذين تعفو عنهم ليسوا بأجانب إنما هم وطنيون وممن ترعاهم . فإذا لم يستشعر الخديو الحلم هتكت الرعية ، وكيف يبقى الراعي بغير رعية ؟ وكل هذا إغراء للخديو على ترك الظلم والمبالغة في معاقبة من انضموا تحت لواء عرابي

***

هذه القصيدة وإن كانت ضعيفة الأسلوب ، واهية العبارة إلا أنها خير ما نظم الليثي . ذلك لأنه لم يكن فيها متكلفاً ولا متصنعاً . إنما كان معبراً عن إحساس داخلي وشعور كامن في نفسه . وإذا قارنت هذه القصيدة بقصيدة عبد الله فكري التي نظمها في هذا الصدد لأدركت الفرق بين الرجلين . فالليثي بدا في هذه القصيدة وطنياً مخلصاً . بكى على ما أصاب الوطن ، وناح وتألم وتوجع وتحسر ، وذكر الضحايا والشهداء وقرر أن هزيمة الجيش المصري مرة كبرى لحقت بالأمة أما عبد الله فكري فقد بكى على نفسه وشرع يستدر عطف الخديو بعبارات الشحاذين . ومثال ذلك قوله :

أيجمل في دين المروءة أنني ... أكابد في أيامك البؤس والعسرا

وقوله :

وحسبي ما قد مر من ضنك أشهر ... تجرعت فيها الصبر أطعمه مرا

(الكلام صلة)

محمد سيد كيلاني

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ احمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوي ، وستيباب موجز وتحليل مفصل واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

طبع اثنى عشرة مرة في ٥٢٥ صفحة

وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد